ثقافة

رحيل

الرحلة لم تنته والوجع لم يتوقّف

وداعاً إلياس خوري

لم تتوقّف تجربةُ الكاتب اللبناني، الذي غادر عالمنا أمس الأحد، عن كونها زاخرة بالتجريب والتحديث الروائي والقصصي والنقدي، بل إنّها تُظهر حالةَ الانهماك في البحث عن معنى التاريخ والحدث، ودلالةُ كلّ منها ماثلةٌ بوضوح في أكثر أعماله الأدبية

أمير داود

تظلُّ جملةُ إلياس خوري (1948 - 2024)، الذي رحل عن عالمنا أمس في بيروت: «أنا أخاف تاريخاً لا يملك سوى رواية واحدة. التاريخ له عشرات الروايات المختلفة، أمّا حين يجمد في رواية واحدة، فإنّه لا يقود إلّا إلى الموت»، شديدةَ الدلالة للتعريف بسيرة الروائي والقاصّ والناقد والصحافي اللبناني التي لم تتوقّف عن كونها سيرةً أدبية وإنسانية زاخرة بالتجريب والتحديث الروائي والقصصي والنقدي، بل إنّها تُظهر حالةَ الانهماك في البحث عن معنى التاريخ والحدث، ودلالةُ كلّ منها ماثلةٌ بوضوح في أكثر أعماله الأدبية.

ولعلّ القضية الفلسطينية وهي تأخذ محوراً رئيسياً في العديد من أعماله، التي استعرَض فيها المعاناة التي حلّت بالشعب الفلسطيني ومـأزق تشتّته، من خلال شخصيات وأحداث تتداخل فيها أبعاد سياسية وإنسانية واقعية ومفرطة الخيال في الوقت نفسه، كان من بين ما أعطى أعماله عمقاً أدبياً وتجربة قرائية فريدة.

أتاح له هذا التداخُل استكشاف عوالم نفسية وسياسية وثقافية من خلال الشخصيات والأحداث التي تبدو في بعض الأحيان غير تقليدية، مُعتمداً في كتابته على تقنية تعدُّد الأصوات والتناوُب بين السرد والحوار الداخلي، والتي كثيراً ما لجأ فيها إلى الزمن غير الخطّي، ما عكَس تعقيدات الحياة والذاكرة.

يَظهر هذا الأسلوب بوضوح في روايات مثل «يالو» و«باب الشمس»، مع لغةٍ شعرية تُضفي طابعاً جمالياً على السرد. غير أنّ خوري غالباً ما كان يتّكئ على عُمق وجداني للشخصيات والأحداث لمعالجة موضوعات الهوية والانتماء؛ حيث تناول الهوية الفلسطينية واللبنانية في ظلّ الاضطرابات السياسية والاحتلال والنزوح. ومن خلال هذا الطرح، قدّم رؤىً فلسفية وأخلاقية حول معنى الانتماء في عالم مضطرب لا يهدأ.

وتبدو ثيمةُ اللجوء الفلسطيني واسعةً ومستطيلة على أبرز أعماله، بالنظر إلى القصص التي جمعها من مخيّمات اللاجئين على مدار سنوات الاحتلال الطويلة. وقد اعتبر العديدُ من النقّاد روايته «باب الشمس» (1998) أوّلَ عمل ملحمي في السردية الفلسطينية التي اختصَرت الرحلة التي لم تنته والوجع الذي لم يتوقّف.

وقد ارتبطت «باب الشمس» بإحدى التجارب الشبابية المناهِضة للاستعمار الاستيطاني في الأرض الفلسطينية، عندما أطلق ناشطون فلسطينيون هذا الاسم على قريةٍ أنشؤوها عام 2013 على حدود مدينة القدس، قبل أن تهدمها قوّات الاحتلال الإسرائيلي بعد أقلّ من يومَين من بنائها.

وقصص هذه الرواية، وإن سُردت من وجهة نظر خليل، أحد أبطالها، كُتبت بنُسَخٍ مختلفة للقصّة الواحدة؛ فالراوي يتنقّلُ ذهاباً وإياباً مع مرور الوقت ، ويتصارع مع عدم استقرار الذاكرة وأسئلة الدافع والهوية، والتي تعكس عدم استقرار الحقيقة على وجهٍ واحد واستحالة القبض على وجه واحد منها.

يقول في إحدى مقابلاته : «لقد اكتشفتُ، لدهشتي، أنّه لم تكن هناك أيُّ تقارير مكتوبة عن الحرب. لم يكن هناك أرشيف للرجوع إليه. لم يكن هناك سوى الهمسات التي قد تسمعها في المنزل: الدروز قتلوا جدّك، والمسيحيون قتلوا عمّك، وما إلى ذلك. بالنسبة لي، هذا الافتقار إلى الماضي المكتوب على وجه التحديد يعني أنّنا كلبنانيّين ليس لدينا حاضر أيضاً. أنا لست مهتمّاً بالذاكرة في حدّ ذاتها، أنا مهتمّ بالحاضر. لكن لكي تحصل على هدية، عليك أن تعرف الأشياء التي يجب أن تنساها والأشياء التي يجب أن تتذكّرها. إنّ افتقارنا إلى التاريخ المكتوب جعلني أشعر أنّني لا أعرف حتى البلد الذي نشأت فيه. ولم أكن أعرف مكاني فيه. لا أعتقد أنّني قمت بأيّ اكتشافات عظيمة كمؤرّخ، ولكن عندما بدأت كتابة الروايات، بعد سنوات قليلة، وجدتُ أنّني أريد أن أكتب الحاضر - حاضر حربنا الأهلية».

في روايته «الوجوه البيضاء» (1981)، التي كتبها في خضمّ الحرب الأهلية اللبنانية، صوّر خوري، بأسلوب صحافي، التدهور الذي أصاب البنية الأساسية في بيروت والتكاليف النفسية التي عاناها سكّانُها، وتناول قضايا نادراً ما تناولتها الرواية العربية في ذلك الوقت؛ مثل حقوق المرأة، والقيود المجتمعية، والدين.

ولم يكتف خوري في روايته بوصف الفظائع، وإنما ذهب أبعد من ذلك: قرأ بعض آثارها ونتائجها على البشر والطبيعة والعلاقات. وإذا كان اللون الأبيض قد استهواه في روايته تلك، فليس لكونه لوناً كاشفاً فقط، وإنما لكونه ضوءاً أيضاً، يُظهر الأشياء على حقيقتها، ويرينا المشهد بكُلّ ما يحفل به من عبث وفجيعة وجنون. لقد فعل إلياس ذلك تاركاً لنا أن نقرأ الظواهر وما وراءها، لكي نفهم ما يجري حولنا، ولئلا نكون أدوات في لعبة لا نملك فيها إلّا الامتثال والتمثيل.

انتمى إلياس خوري - الذي وصف نفسه في إحدى المناسبات بأنّه مناضل - لفترةٍ من الوقت إلى حركة فتح، قبل أن يُغيّر ولاءه إلى الأدب وينهمك ويعيش فيه.

وعندما سُئل عن كيفية استقبال «الوجوه البيضاء» التي تُشير إلى بعض الفصائل داخل المنظّمة ، لحظة صدورها لأوّل مرّة، قال إنّ الكتاب سبَّب «مشكلة كبيرة»؛ فبمجرّد صدوره، سحبته «منظّمة التحرير الفلسطينية» من المَتاجر. ولكن بعد عامَين، في أعقاب نشره سلسلة من المقالات عن الغزو الإسرائيلي لبيروت، غيّرت المنظّمة رأيها: «وفي تلك اللحظة أُعيد طباعة الكتاب واعتُبر كتاباً فلسطينياً بامتياز في بيروت».

في عام 2013، ألقى صاحب كتاب «النكبة المستمرة» (2023) كلمةً من بيروت أمام مجموعة من 250 ناشطاً فلسطينياً شاركوا في بناء قرية «باب الشمس»، تيمُّناً بروايته التي تحمل الاسم نفسه، وقال من جملة ما قال يومها: «لن أقول: أتمنّى لو كنت معكم، فأنا معكم... هذه هي فلسطين التي تَصوَّرها يونس في رواية باب الشمس».

(كاتب من فلسطين)

إلياس خوري.. ميلاد في زمن النكبة رحيل في الإبادة

شكّلت القضيةُ الفلسطينية محور العديد من أعماله

تناوَل موضوعات الهوية والانتماء والاحتلال والنزوح

16 رواية

أصدر إلياس خوري 16 روايةً؛ هي: «أبواب المدينة» (1981)، و«عن علاقات الدائرة» (1985)، و«رحلة غاندي الصغير» (1989)، و«عكا والرحيل» (1990)، و«مجمع الأسرار» (1994)، و«باب الشمس» (1998)، و«الجبل الصغير» (2003)، و«الوجوه البيضاء» (2003)، و«رائحة الصابون» (2007)، و«مملكة الغرباء» (2007)، و«يالو» (2012)، و«المرايا المكسورة: سينالكول» (2012)، و«كأنّها نائمة» (2013)، وثلاثية «أولاد الغيتو» (2016، 2019، 2023).

إضاءة

ثلاث افتتاحيات بعد السابع من أكتوبر

عينٌ مفتوحة على الالتزام

بعد السابع من أكتوبر، وقّع الروائي اللبناني الراحل ثلاث افتتاحيات من مجلّة «الدراسات الفلسطينية»، تمثّل خلاصة التزامه ورؤيته

أنس الأسعد

«يمتلك الشهيد عينَين: الأُولى كي يشهد من خلالها لأنّ أحد المعاني الحَرْفيّة لكلمة شهيد هو من يشهد أي من يرى. والعين الثانية تكون مُغمضة لأنها تُشير إلى موته، وعندما يتوغّل في الموت تنفتحُ عينُ الشهيد من جديد»، بهذه الكلمات افتتح الروائي والصحافي والناقد اللبناني الراحل إلياس خوري العدد الأخير من المجلّة التي يترأس تحريرها «الدراسات الفلسطينيّة»، والذي خُصّص للشهيد وليد دقّة تحت عنوان «العين المفتوحة».

قبل «العين المفتوحة»، وقّع الراحل (1948 - 2024) افتتاحيَّتي شتاء وربيع 2024 من الفصليّة: «أين تقعُ غزّة؟» و«كلّ فلسطين هي غزّة»، وكان من المنتظر أن يصدر عدد الخريف قريباً، ليكونَ الرابعَ للمجلّة بعد السابع من أكتوبر/تشرين الأول 2023، لكن الموت كان أعجل، فخطف خوري كما الشهيدين الأديبَين وليد دقّة قبل خمسة أشهر، ورفعت العرعير في كانون الأول/ ديسمبر من العام الماضي، وإن كان خوري ليس معتقَلاً كدقّة ولا محاصراً بالإبادة كالعرعير، وبالتزامن مع الذكرى الثانية والأربعين لمجزرة صبرا وشاتيلا التي تحلّ ذكراها اليوم الاثنين.

تُشكّل الافتتاحيات الثلاث خُلاصة التزام إلياس خوري بالقضية الفلسطينية، وتوقيعه لها ليس تلك المهمّة الوظيفية، بل هو الانتماء المُلتزِم منذ التحاق ابن حيّ الأشرفية البيرُوتي، وهو في مطلع العشرينيات من عُمره بالعمل الفلسطيني الثوري.

العدد الأوّل من «الدراسات الفلسطينية» بعد الطوفان تأخّر صدورُه حتى شتاء 2024، فالعملية اللّامُتوقّعة، والإبادة التالية، حتّمت إنصاتاً وتحضيراً موازياً حتى خرج العدد في 370 صفحة، وفي افتتاحيته يكتب خوري: «تشكّل غزّة اليوم مقياساً لمآل القيم الأخلاقية في العالم، فهنا على الشاطئ الجنوبي للمتوسّط تنهار جميع القيم، ويتحوّل الإنسان إلى ظلّ لإنسانيته. هُنا في غزّة تتمّ جريمة إلغاء التمييز، أو محاولة إلغاء التمييز بين العدالة والظلم، بين الموت والحياة، بين الضمير وغيابه».

في العدد التالي «غزّة تردّ بالكتابة»، الذي صدر في ربيع العام الجاري، وكانت الإبادة قد أتمّت نصف عام ولم يبق للدعاية الإسرائيلية من أدوات تغطّي على جرائمها، يكتب خوري: «النكبة الكبرى لن تتكرّر، وهو ما جعل الإسرائيليين يلجأون إلى تحويل النكبة إلى مسار من مجموعة نكبات صُغرى احتلّت الحياة الفلسطينية منذ سبعة عقود.

غير أن غزّة تُشكّل استثناءً، ربما لأن الإسرائيليّين يريدون تحويلها إلى نموذج فلسطين المُقبل».

في زمن الصليب (نسبة لعيد الصليب الذي احتُفل به أول من أمس السبت) يرحل إلياس خوري، وعُمره من عُمر النكبة الفلسطينية تماماً، ستةٌ وسبعون عاماً، وكأنّ القدر الذي جمعَه والشعب الفلسطيني بهذا الميلاد حتّم عليه أن يُقاسم رفقاء دربه الفلسطينيّين صليبهم الثقيل ونكبتهم المستمرّة كما عنون كتابه الأخير.

رأى أنّ غزّة تشكّل اليوم مقياساً لمآل القيم الأخلاقية في العالم

«انتظار»، تيسير بركات، اكريليك على قماش، 131 × 108 سم

تلويحة

رحلة معرفة وكتابة النكبة المستمرّة

فلسطين تاريخٌ يُصنع الآن

فلسطين إلياس خوري طريقٌ للتفكير في الاحتلال بوصفه تركة الاستعمار الغربي وأداته، وتأمُّلاً في بنية الاستبداد العربي التي جرّفت وجودنا الحضاري

محمود منير

في كتابه «النكبة المستمرّة» (دار الآداب، 2023)، يستذكر الروائي اللبناني الراحل، إلياس خوري، مجزرة صبرا وشاتيلا؛ حيث ذهب إلى المخيّم في 16 أيلول/ سبتمبر 1983 لإحياء الذكرى السنوية الأُولى لضحايا المجزرة، حين اعتقد أنّه يرى مناماً لما شاهد نساء متّشحات بالسواد وهنّ يلوحّن بالأعلام الفلسطينية ويزغردن.

مشهدٌ أصابه بالدهشة والعجز عن الفهم، فأتاه جواب إحداهن: «انتصرنا»، ثم أضافت: «صار عندنا مقبرة لأولادنا، أخيراً انتصرنا»، وقادته النسوة إلى أرض فارغة وخالية من أيّ إشارة تدلّ على هويتها، وهي المقبرة الجماعية التي دُفن فيها 1500 ضحيّة في «صبرا وشاتيلا». «الانتصار» مفردةٌ سينتظر المثقّف والكاتب؛ فلسطيني الروح والانتماء - كما كان يصف نفسه - تسعة أعوام حتى يفهم دلالاتها.

لم تكن رحلته إلى فلسطين مجازاً عابراً في نصّ سردي أو مقال، إنما كانت رحلة بحثية معرفية معمّقة خلّقت شخصياته المركّبة وأحداث معظم رواياته؛ بدءاً من «باب الشمس» (1998) وليس انتهاء بثلاثية «أولاد الغيتو: اسمي آدم» (2016)، و«نجمة البحر» (2019)، و«رجل يشبهني» (2023).

في العودة إلى الزغاريد والانتصار، اكتشف إلياس خوري خلال جمع حكايات النكبة لأكثر من سبع سنوات من أجل بناء «باب الشمس» الصدمة التي أحدثها غياب المقابر في حياة الذين عاشوا كارثة 1948، حيث «تُركت الجثث في أزقّة القرى أو في العراء، لأنّ الناس كانوا غير قادرين على دفن قتلاهم تحت رصاص قوّات الاحتلال وأوامرها الصارمة بضرورة المغادرة».

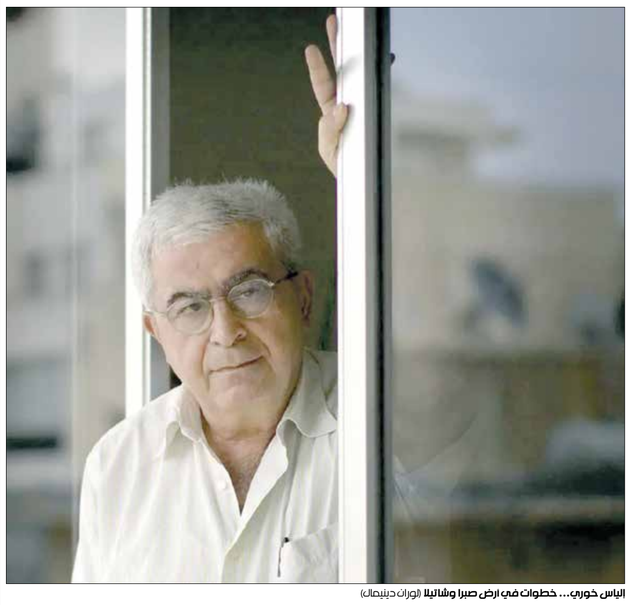

وأدرك أنّ هذه الصدمة التي تعود جذورها إلى 1948 ستستيقظ عام 1982، حين تُركت جثث مئات الضحايا لتتعفّن في أزقّة مخيّمَي صبرا وشاتيلا قبل أن يقوم الصليب الأحمر بإلقائها في حفرة المقبرة الجماعية بعد رشّها بالكلس والمبيدات، ليخلص خوري إلى أنّ «النكبة الفلسطينية ليست ماضياً نتذكّره، وإنما هي الكلمة التي تُلخّص الحياة تحت الاحتلال وفي مخيّمات اللاجئين الفلسطينيّين في فلسطين والشتات العربي المجاور».

كلمةٌ فهمها خوري، الذي وُلد في حيّ الأشرفية البيروتي والتحق بـ«مركز الأبحاث الفلسطيني» في الثالثة والعشرين من عمره، وهناك حظي برفقة أنيس صايغ الذي رسّخ لديه فكرة المثقّف المستقلّ الناقد غير الخاضع للسلطة، بل هو خادم للناس في تركيز على مناقبية أخلاقية ميّزت غالبية الذين عملوا في المركز، بعد أن فرّقتهم الدروب، وأنّ المعرفة شرط أساسي للتحرّر الوطني.

ربما كانت حدّة خوري أخفض من معلّمه صايغ في صدامه مع قيادات منظّمة التحرير الفلسطينية، لكنّه لن يتخلّى عن وعيه النقدي للمقاومة، ومحاولته الدؤوبة لمراجعة تجربتها، وظلّ محافظاً على قناعته بأنّ الثورة مشروع وطني يحتمل التأويل والاجتهاد، رافضاً أيّة ذريعة لقمع المختلفين بالرأي والموقف مع قيادتها، ولم يغفل في الوقت نفسه عن تشريح ما واجهته من حصار ومحاولات ابتلاع الأنظمة العربية لها.

في كتاب «النكبة مستمرّة»، يرى خوري أنّ «الفشل العربي في احتواء النكبة ومحاصرتها كان العلامة الأُولى على أنّ النهضة العربية كانت مهدّدة بالتحوّل إلى عصر انحطاط جديد، وقد قام الاستبداد بتعميم هذا الانحطاط الذي حطّم المراكز المدينية، وأخذ المشرق العربي إلى الحضيض»، لافتاً إلى أنّ «المشرق العربي الذي أسلم قياده لأنظمة الاستبداد العسكرية والنفطية، سيجد نفسه أمام لحظة تفكّك عشوائية أوصلته إلى ‹اتفاقيات أبراهام› التي أعطت إسرائيل يداً حرّة في التصرّف في المناطق الفلسطينية المحتلّة».

آمن إلياس خوري بأنّ النكبة كتابٌ مفتوح، وأنّ عليه أن يشارك في توثيق الاسم المغيَّب والأرض المصادَرة؛ فلسطين، وأن يؤكّد أنّها «تاريخٌ يُصنع الآن»، في إشارة لاستمرارية النكبة ومرورها بمجموعة منعطفات حادّة لم تنته، وأنّ مفاتيح فهمها تتمثل بـ: «الذاكرة»، و«الأرض»، و«البقاء»، و«الأقدام السوداء»؛ في إحالة إلى التطهير العرقي في القدس ونظام كولونيالي وتمييز عنصري في الضفّة الغربية وتحويل قطاع غزّة إلى غيتو مقفل، والتعامل مع فلسطينيي 48 مواطنين من الدرجة الثانية ووضعهم في دائرة الاتهام، و«المرئي المحجوب»، قاصداً سعي الاحتلال إلى أن يجعل الفلسطيني في أرضه محجوباً ولا مرئياً.

فلسطين خوري طريقٌ للتفكير في الاحتلال بوصفه تركة الاستعمار الغربي وأداته المستدامة، وتأمُّل في بنية الاستبداد العربي التي جرّفت وجودنا الحضاري وهشّمت معانيه، ورؤيا آمن بها وأعاد التذكير بها في مقال نشره في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2023 بعنوان «إنّها فلسطين.. شيء لا يوصف»، حين يقول: «شعب فلسطين لن يموت. وحدكم تفتحون للعرب أفقاً وحاضراً ومستقبلاً».

آمن بالمشاركة في توثيق الاسم المغيَّب والأرض المصادرة

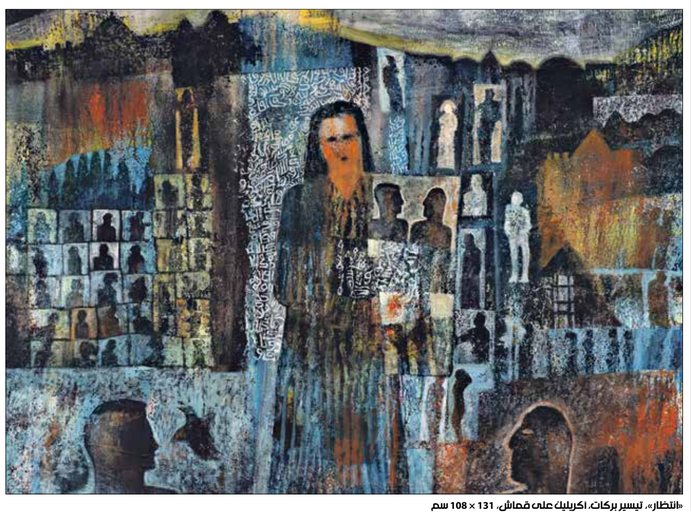

إلياس خوري... خطوات في أرض صبرا وشاتيلا (لوران دينيمال)

فعاليات

عند السابعة من مساء الأحد المُقبل، يُفتتح في «مكتبة البلد» بالقاهرة معرض بعنوان **فيلسوف الكاريكاتير**، ويتواصل حتى الرابع من الشهر المقبل. تُضيء الأعمال المعروضة تجربة الفنّان المصري من أصل سوداني الراحل **محمد حاكم** (الصورة/ 1934 - 2024) والأسلوب الذي اعتمده في رسوماته الكاريكاتيرية.

بوّابات القدس في العصور الإسلامية المبكّرة: من القرن الثامن إلى الحادي عشر الميلادي عنوان المحاضرة التي يُقدّمها المُحاضر في «جامعة بيت لحم»، **عمر عبد ربّه**، في «المعهد الفرنسي» بالقدس المحتلّة، عند السابعة من مساء بعد غد الأربعاء. تتناول المُحاضَرة أبواب المدينة على ضوء الحفريات الأثرية والدراسات التي تمّ إنجازُها منذ أواسط القرن 19 إلى اليوم.

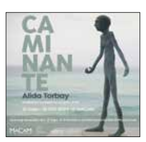

يُفتتَح، عند الساعة السادسة من مساء 21 أيلول/سبتمبر الجاري، معرض **العابر** للنحّاتة اللبنانية الفنزويلية **أليدا طرابيه**، في «مقام: متحف الفنّ الحديث والمعاصر» ببلدة عاليتا اللبنانية، ويتواصل حتى 18 الشهر المُقبل. تستكشف طرابيه في منحوتاتها المصنوعة من البرونز والريزن مفهوم السفر وتجلّياته الإنسانية.

عند السابعة والنصف من مساء الثلاثاء، الرابع والعشرين من الشهر الجاري، تُنظِّم «مكتبة تكوين» في الكويت العاصمة (فرع الشويخ) حواريّة بعنوان **تعالوا نتحدّث عن فلسطين: ماذا تغيّر فيكم بعد السابع من أكتوبر؟** يُديرها الباحث **سامي شاهين**، ويتناول فيها المشاركون هواجسهم في ظلّ الإبادة الصهيونية في غزّة.